قصص الرشيد



تاجر البصرة

تصدرها نهضة مصر بالفجالة

قصص الرشيد

-١١-

تاجر البصرة

بقلم

ابراهيم عزوز

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة - مصر

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة

هارون الرشيد خامس خلفاء الدولة العباسية . وقد كان عصره أزهى عصور المسلمين فى بغداد . فبلغت الدولة الإسلامية فى أيامه قمة مجدها . حتى تزلف إليها أكبر ملوك أوربا ، وخطبوا ودَّها ورضاها .

وجدير بأبناء العرب فى كل مكان أن يقرءوا تاريخ هذا العصر الذهبي ؛ ويقفوا على سر عظمة أجدادهم . ليستمدوا القدوة الصالحة ، والعبرة النافعة .

وإنى إذْ أقدم للناشئة هذه القصص ، التى تصور هذا العصر تصويراً ، فى بعضه الصدق التاريخى ، وفى بعضه الخيال الأدبى — لأرجو أن ينفع الله بها أبناءنا ، وأن تحفز هممهم لدرس هذا التاريخ المجيد .

والله الموفق المؤلف

— ١ —

بينما كانَ الخليفةَ هارونُ الرشيدُ جالسًا فى قاعةِ عرشِهِ ، دخلَ عليه غلامٌ من غِلْمانِ زوجتهِ السيدةِ زَبيْدَةَ ، وهو يحمِلُ تاجًا من الذهبِ ، مرصَّعًا بفُصوص الجواهر النادرةِ ، فقبَّـل الأرضَ أمامهُ وقال لهُ :

— مولاتى السيدةَ زُبيدةَ ، تُقرِئكَ السلامَ ، وتُحيِّيكَ بتحيةِ الإسلام . وتقولُ لك : إنها بحثتْ عن لؤلؤةٍ كبيرةٍ ، لتضعَهَا فى أعْلَى هذا التاج ، ولـكنَّها لم تجدْهَا وترجوكَ أن تأمُرَ لها بهذهِ اللؤلؤةِ من خزائنك العامرةِ .

فقال الرشيدُ :

— حبًّا وكرامةً ؟! وعلى العينِ والرأسِ طلبُ زبيدة .

وأمرَ خازنَ الجواهرِ أن يبحثَ فى الخزائنِ عن طلب السيدةِ زُبيدَةَ الغالية .

بحثَ الخازنُ ثم بحثَ ، ولكنه لم يجد اللؤلؤةَ المطلوبةَ ، وكلّمَا وجدَ لؤلؤةً ، وَوضعَهَا فى المكانِ الخالى من التَّاجِ ، تظهرُ أنها صغيرةٌ جدًّا .

فغضبَ الرشيدُ وتضايق ، وقالَ :

— كيفَ أكونُ مَلِكَ مُلوكِ الأرضِ ، وليسَ فى خزائِنى لؤلؤةٌ واحدةٌ تصلحُ لطلبِ زُبيدةَ ؟ ! إنَّ هذا عارٌ وعيبٌ كبير .

وأمرَ فى الحالِ أن يطلبُوا تجّارَ الجواهِرِ فى بغدادَ ، ويعرِضُوا عليهمُ التاجَ ؛ ليبحثُوا لَهُ عن لؤلؤةٍ مناسبةٍ مهما يكنْ ثمنُها غالياً . حتّى لوْ بلغَ ثمنُها نصفَ مُلكِهِ .

فاجتمعَ التُّجّار فى حضرةِ الرشيدِ ، ومعهمْ جميعُ اللآلئ التى يملكونَهَا ، وصارُوا يُجرّبون ما معهمْ منهَا واحدةً بعدَ واحدةٍ ؛ ولكنّهُمْ خابوا ، ولم يجدُوا اللؤلؤةَ المطلوبةَ .

وأخيراً قال الوزيرُ جعفرٌ :

— بَقِيَ يا أميرَ المؤمنينَ تاجرٌ واحدٌ في مدينةِ البصرةِ من تجارِ الجواهرِ ، هو أبو محمدٍ الكسلانَ . . .

فلما سمع التُّجّارُ اسمَ أبي محمد الكسلانِ ، صاحُوا جميعًا بصوتٍ واحدٍ :

— نَعَمْ يا أميرَ المؤمنينَ ، أبو محمدٍ الكسلانُ ، هو الذي يُمكنُ أن تجدَ عنده اللؤلؤةَ المطلوبةَ : وإذا لمْ تجدْها عندَهُ ، فلنْ تَجِدَها عندَ غيرِهِ من التُّجّارِ .



فدعا الرشيدُ خادمَهُ مسرورًا وقالَ له

— يا مسرورُ ، خذْ معَك عددًا من الجنودِ ، واركبُوا أسرعَ الخيلِ ، واذهبُوا إلى البصرةِ فى الحالِ ، وأحْضِرُوا معكم أبا محمدٍ الكسلانَ ومعهُ أكبرُ اللآلِىءِ وأغلاهَا .

ركبَ مسرورٌ هُوَ والجنودُ الذينَ اختارَهُمْ ، وساروا إلى مدينةِ البصرةِ عِدَّةَ أيامٍ بلياليهَا ، وهُمْ لاينزلونَ من فوقِ الإبلِ والخيلِ إلاّ قليلاً ، للراحةِ والنومِ القصيرِ .

ولمَّا وصلوا إلى البصرةِ ، سألوا عن دارِ أبى محمدٍ الكسلانِ فعرَّفهم الناسُ الدارَ .

وطرقَ مسرورٌ بابَ الدّارِ ، وطلبَ من الغِلْمان الإذْن بالدُّخُول على أبى محمدٍ الكسلانِ .

فلما عرفَ أبو محمد الكسلانُ ، أنّ طارقَ البابِ هو مسرورٌ خادمُ أميرِ المؤمنينَ الرشيدِ ، اهتمَّ وقامَ من مجلسِه . وأسرَعَ إلى الباب ، وفتحَهُ بنفسِهِ ، واستقبلَ مسرورًا أحسنَ استقبالٍ ، ودعاهُ إلى الدُّخولِ وتشريف الدّار .

دخلَ مسرورٌ وجلسَ مع أبي محمدٍ الكسلانِ ، وشربَ كوباً من عصيرِ التُّفّاح ثم قال :

— يا أبا محمدٍ ، إنَّ أميرَ المؤمنينَ الرشيدَ قد سمعَ أنكَ أكبرُ التُّجارِ ، وأنَّ عندكَ عددًا كبيرًا من الجواهِرِ الكريمة ، واللآلِىء النادرةِ . وهوَ يَطلبُ منكَ أكبرَ لؤلؤةٍ لتوضعَ فى تاجِ السّيدةِ زُبيدةَ . وسيُعطيكَ فيهَا ما تطلبُه من الثّمنِ .

ففرحَ أبو محمد الكسلانُ وقال :

— هذا شرَفٌ كبيرٌ يا مسرورُ . . . وأنا وجميعُ

جواهرى وأموالى فى خدمةِ أمير المؤمنينَ !! متى تحِبُّ أَنْ نُسَافِرَ إلى بغدادَ ؛ لأتشرّفَ بحضرةِ أمير المؤمنينَ، وأعرضَ على ذاتِه الشريفةِ ما عندِى من اللآلِئ ؟

فأجابَهُ مسرورٌ :

— يَحسنُ أن نسافرَ الآنَ إذا كانَ السفرُ ممكنًا .

فقال أبو محمد الـكسلانُ :

— إنَّ مقابلة الملوكِ تحتاجُ إلى استعدادٍ كبير ، وإذا أجّلتَ سفرنا إلى الغَـدِ كان ذلك خيرًا .

قَـبِلَ مسرورٌ تأجيلَ السَّفَرِ إلى الغد ، وقامَ أبو محمد الـكسلانُ من فَوْره ، يستعدُّ للسّفر ، ويُرتِّبُ الهدايا فى صناديقهَا ، ويضعُ اللآلئَ فى عُلَبِهَا ، ويجمعُ كلَّ ثمينٍ وغالٍ من تجارتِهِ ؛ ليعرضَهُ على أمير المؤمنينَ الرشيد ، وينالَ رضاهُ ورضَا السيدةِ زُبيدةَ ، الّتى لا يَرُدُّ الرشيدُ لها طلبًا .

وفى صباح اليومِ التالى ، ركبَ بغلةً بسَرْجٍ من الحريرِ ، المزيَّنِ بسُلوكِ الذَّهب ، وفصوصِ الجواهِرِ . ووضعَ عدداً من الصناديقِ المملوءةِ بالهدايا والجواهِرِ والبضائِعِ ، فوقَ الإبِلِ والبغالِ .

وسارَ ، يخدُمه غِلمانه ، ويحرسُهُ مسرورٌ وجنودُهُ .

ولمّا وصلوا إلى بغدادَ ، وتشرّفَ أبو محمدٍ الكسلانُ بالوقوفِ أمامَ الخليفةِ الرشيدِ ، قبّلَ الأرضَ بينَ يديْه وانتظرَ الإذْنَ بالجلوسِ والكلامِ .

فرضِىَ الرشيدُ عن أدبهِ ، وأَذِنَ لهُ بالجلوسِ وسألَه عن اللؤلؤةِ المطلوبةِ .

فوضعَ أبو محمدٍ الكسلانُ يدَهُ فى جيبهِ ، وأخرجَ عُلبةً من الذَّهبِ ، وفيهَا لؤلؤةٌ واحدةٌ فى حجمِ بيضةِ

الدجاجةِ وشكلِها . فلولا نورُها ، ولمعتْ أشعتُها ، كأنّها قطعةٌ صغيرةٌ من الشمْس .

ووقفَ باحترامٍ وانحنى أمامَ الرّشيد ، وقدّمها إليه . فلما رآها الرشيدُ تعلقتْ عينُهُ بها ، وتعجب من كبَرِ حجمِها وجمالِ منظرِها ، وتناولها بيده الكريمةِ ، وصارَ يتأمّلها ، ويردّدُ النّظرَ فيها وقتًا طويلاً . ثم طلب التّاجَ ووضعَ اللّؤلؤةَ فى المكانِ الخالى منهُ . فملأتْهُ كأنّه الصدفةُ التى كانتْ تعيشُ فيها وهى فى البحارِ من قبلُ .

فزادَ فرحُ الرّشيد وتعجُّبه ، وأرادَ أنْ يسألَ أبا محمدٍ الكسلانَ عن ثمنِها ، وعن الغوّاصِ الذى صادهَا ، وعن البحارِ التى صادها منهَا .

ولكنَّ أبا محمدٍ الكسلانَ ، أرادَ أن يزيدَ سرورَ الرشيد ، فقالَ لهُ :

— عندى هديةٌ لمولاىَ أميرِ المؤمنينَ . فهل تشرِّفنى



وتناولها بيده الكريمة

يا مولاى بقَبُولِهَا ؟ وقد كان جدُّكَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقبلُ الهدايا مِمَنْ هُمْ أصغَرُ منهُ قدْرًا ، وأقلُّ منهُ شأناً ؟ !

فابتسمَ الرَّشيدُ وقال :

— هديَّتُك مقبولةٌ يا أبا محمدٍ .

فخرجَ أبو محمد من مجلسِ الرَّشيدِ ، وغابَ قليلاً ، ثم عادَ ومعهُ غلامانِ من غِلمانِهِ ، يحملُ كلٌّ واحدٍ منهمَا صُندوقاً كبيرًا .

ووضعَ الصُّندوقَيْنِ أمامَ الرَّشيدِ ، وفتحَ الأوَّلَ وأخرجَ منهُ شجرةَ تفاحٍ صغيرةً ، ساقُها من المَرجَانِ ، وأوْراقُها من الزُّمُرُّدِ ، وثمارُها من الذَّهبِ والياقوتِ ، وأزهارُها من الماسِ . ووَضعَهَا على نَضَدٍ أَمامَ الرَّشيد .

وفتحَ الصُّندوقَ الثانى ، وأخرجَ منهُ خيمةً من الدِّيبَاجِ والحريرِ الأزرقِ ، وقد زُيِّنَتْ بأغلَى الجواهِرِ والدُّرَرِ ،

وصُنعتِ الأعمدةُ التى تُنصب فوقها من خشَبِ السَّاجِ والعودِ ، الذى يباعُ بالدِّرهمِ ، لِغُلُوِّ ثمنِه كما يباعَ الذَّهبُ .

فلما رأى الرَّشيدُ ذلك تعجَّبَ غايةَ العجبِ ، وقال :

— ما كنتُ أَظنُّ يا أَبا محمد ، أنَّ أحدًا فى مَمْلَكتِى يَملِكُ كُلَّ هذه الأشياء . والناسُ يُسَمُّونك أبا محمدٍ الكسلان وأنتَ تجمعُ كُلَّ هذا الغنى ! ! فماذا كُنتَ تجمعُ لو كنتَ أبا محمَّد النشيطَ ؟ !

فضحكَ أبو محمدٍ الكسلانُ ضحكةً خفيفةً مؤدَّبةً ، وقال :

— إنَّ لى يا مولاىَ قصةً عجيبةً غريبةً ، لو كتبتْ بالإبَر على آمَاقِ البصرِ ، لكانت عِبرةً لمَنْ اعتبرَ .

فقال الرَّشيدُ :

— إنَّ كل شىء فيك عجيبٌ غريبٌ يا أبا محمد . فأسمِعنى قِصَّتَك العجيبةَ .

فقالَ أبو محمدٍ الكسلانُ :

كانَ أبى يا أميرَ المؤمنين حلاقًا فقيرًا فى البصرةِ ، وماتَ وأنا صغيرٌ ، ولم يَترُكْ لى مالاً أعيشُ به .

فصارتْ أُمّى تخدُمُ فى المنازِلِ والبُيوتِ ، وتُنفِقُ علىَّ . وكنتُ أشدَّ النّاسِ كسلاً ، حتى إنّى كنتُ أكسَلُ عن القيامِ من الشّمسِ ، إذا زحَفَتْ علىَّ وأنا نائمٌ . وكنت أكسَلُ عنْ وضعِ اللُّقمةِ فى فمى ، وأنتظرُ حتّى تُطعِمَنى أُمّى !

فضحكَ الرشيدُ وقالَ :

— إنكَ يا أبا محمدٍ لم تكنْ كسلانَ ، ولكنكَ كنتَ ميّتًا فى صورةِ حىٍّ .

فقال أبو محمد :

— صدَقت يا أمير المؤمنينَ .

وفى ذاتِ يومٍ جاءتْ أمّى وقالَتْ :

— يا أبا محمدٍ ، سمعتُ اليومَ أن أبا المُظفَّرِ خارجٌ بتجارةٍ إلى بلادِ الصِّينِ . وهو رجلٌ صالحٌ طيِّبٌ ، يعطف على الفقراء ، ويرغَبُ فى مساعدتِهمْ . فخُذْ هذهِ الدّراهمَ الخمسةَ ، واذهبْ بها إليه ، واطلبْ منه أن يشترىَ لكَ بها تجارةً صغيرةً ، لعلكَ تربحُ منهَا بعضَ الرّبح .

فقلتُ لها :

— لا أستطيعُ أن أقومَ من مكانِى ، وبكيتُ .

فساعدتْنى على القيامِ ، وألبستـنِى الحِذاء ، ووضعتْ يدَها تحتَ إبطى ، وصارتْ تسندُنى وتمشِى بجوارى . حتى وصَلتُ إلى ميناء البصرةِ ، وقابلتُ أبا المظفَّرِ ،

وأعطيتهُ الدراهمَ ، وطلبتُ منهُ أن يشترىَ لِى بها شيئاً نافعاً .

فسألَ أبو المظفَّرِ الرُّكَّابَ المسافرينَ معهُ : هل يعرِفُنِى أحدٌ منهمْ ؟ فقالُوا :

— نعم نعرفه ، هذا أبو محمدٍ الكسْلاَنُ ، وما رأيْنَاهُ قبلَ اليومِ يخرجُ من دارِهِ لشدَّةِ كسَلِهِ .

فقبِلَ أبو المظفَّرِ الدرَّاهمَ ووعدَنى خيراً ، ورجعت إلى أمى ، واتكأتُ على يَدِها حتى وصلْنَا إلى البَيْتِ .



ووصل أبو المظفَّرِ إلى بلادِ الصِّينِ ، وطلَع من السفينةِ هو والتُّجَّارُ الذينَ معه ، وباعُوا بضائعهم ، واشترَوْا غيرَها ، وربحُوا أموالاً كثيرةً ، ثم عادُوا بسفينتِهِمْ .

وبعدَ ثلاثةِ أيامٍ من سفرِهِمْ فى البحرِ ، تذكَّرَ أبو المظفَّر أنه نَسِى حاجةً مهمَّةً ، فقال :

— لا حوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ . . . نسِينا يا جماعةُ أَنْ نشترىَ بضاعةً للولدِ اليتيمِ ، أبى محمد الكسلانِ ! !

ويلْزَمنا أن نعودَ مرَّةً أُخرَى لنشترىَ له شيئاً ، لعلَّ اللهَ يُساعدُهُ بالربح فيه ! !

فقالوا جميعاً :

— أَبعدَ مسيرةِ ثلاثةِ أيامٍ نرْجِعُ مرةً ثانيةً ؟ !

لا . لا . نحن نعطيكَ من أموالنا ما يعوِّضُهُ عن الربحِ من دراهمِهِ ، ولا نعودُ .

وقدَّم كلُّ واحدٍ منهم عشرةَ دراهمَ لأبى المظفرِ .

فجمعَ أبو المظفرِ هذهِ الدراهمَ ، وحفظهَا باسمِى .

وساروا حتى وصلُوا إلى جزيرةٍ كبيرةٍ فى وسطِ البحر .

فطلعَ أبو المظفَّرِ ، وقال :

— هذه فرصةٌ . . أبحثُ عن شىءٍ أشتريهِ لأبى محمدٍ الكسلانِ من هذه الجزيرةِ .

وبعد بحثٍ وجدَ رجلاً معهُ عدةُ قرود ، يَعرضُهَا للبيعِ ، وفيهَا الصغيرُ والكبيرُ ، والقوىُّ والضعيفُ ، ومنها قردٌ عجوزٌ منتوفُ الشعرِ . . والقرودُ كلّها تضربهُ وتَعَضُّه ، وهو لاَ يستطيعُ أنْ يُدافعَ عن نفسِهِ .

فلما رآهُ أبو المظفّر ، أخذتهُ الشفقة ، وقالَ للرجل :

— هلْ تبيعَ لى هذا القردَ بخمسةِ دراهمَ ؟ !

فرضِيَ الرجل ، وأخذَ أبو المظفر القردَ ورجع به إلى السفينةِ .

وساروا فى البحرِ حتى وصلوا إلى جزيرةِ اللُّؤْلُؤِ .

فَأَرْسَوْا سفينَتَهم عليها ، وصارَ الناسُ يَغوصونَ فى البحرِ ليصيدُوا لؤلؤا . ولما رآهُمُ القردَ فَكَّ نَفْسَهُ من المربطِ ، ونطَّ معهم فى الماء وغاصَ .

فخافَ أبو المظفّر وحزن ، وقالَ فى نفسِهِ :

— ضاعَ مالُ اليتيمِ . . . ياليتَنِى ما اشتريتُ هذا القردَ ! !

وما كاد يُتِمُّ قَوْلَهُ حتى رأى القردَ يخرجُ من الماء ، ومعهُ قدرٌ كبيرٌ من أصْدَافِ اللؤْلُؤ الممتازِ ، ويضعُها أمامَ أبى المظفر ، فتبدَّلَ حزنُ أبى المظفّرِ وخوفُه ، إلى سرورٍ وفرحٍ كبير .

ومكثَ الغوّاصُونَ يجمعونَ اللآلِئَ أياماً ، والقردُ يغوصُ معهم ويُخرِجُ ما يجده ، وأبو المظفّرِ يحفظ كلَّ ذلكَ لِي .

ثم أَقْلعَتِ السفينةُ وواصلتِ السير ، حتى وصلتْ إلى ميناءِ البصرةِ بعد شهورٍ من خروجِها .



وبينما أنا جالسٌ فى دارِنَا . كسلانَ جَوْعَانَ ، دخلَ علىَّ غلمانُ أبى المظفّرِ ، وبشّرونِى بعَوْدَتِهِ ، وبأرباحى الكثيرةِ .

فناديتُ أُمِّى وطلبتُ منها أن تُلْبِسَنِى الحذاءَ والملابسَ وتَسنُدَنِى ، حتّى أصِلَ إلى دارِ أبِى المظفّرِ ، وأتسلّمَ منه أرباحَ دراهمى .

ولما وصلتُ إلى الدّارِ ، استقبلَنى أبو المظفّرِ ، أحسنَ استقبالٍ ، وحكى كُلَّ ما حصلَ معهُ ، وسلّمنى القردَ والنقودَ واللآلئَ . ونصحنى أن أترُكَ الكسلَ ، وأفتَحَ دكانَ جواهرَ ؛ لأبيعَ فيهِ اللآلئَ ، وعلّمنى أصولَ التجارةِ .

ففرحتُ وفرحَتْ أمِّى ، ووعدتُ أَبا المظفّرِ بأنْ أعملَ بنصيحتِهِ من الغَـدِ .

ورجعتُ إلى البيتِ وأنا نشيطٌ خفيفٌ، كأنّى أطير فوقَ الأرضِ ، وذلكَ لشدَّةِ فرحى بالربحِ الكثيرِ .

وفتحتُ دكانًا وصرتُ أبيعُ وأشترى .

وكنتُ آخذُ معى القردَ الذى كانَ سببَ سعادتى وغِناىَ ، وتغييرِ حالى من الكسل إلى النّشاطِ . وصارَ القردُ يجلسُ بجانِبى على الدَّكّةِ ، فى الدكانِ ، ويأكلُ مَعى فى إناءٍ واحدٍ . وكان يغيبُ عنّى فى أولِ النَّهارِ قليلاً ثم يعودُ ومعه كيسٌ فيه ألفُ دينارٍ ، ويُلقيه أمامى .

وبعد ما جمعتُ ثروةً كبيرةً بفضلِ هذا القردِ ، جلسَ ذاتَ مرّةٍ بجانِبى ونظرَ إلىَّ وقالَ :

— يا أبا محمدٍ .

فلما سمعتُ صوتَهُ فزعت واضطربتُ وقلتُ :

— سبحانَ اللهِ ، أعوذُ بربِّ السَّماء والأرض !

فقالَ لى :

— لا تنزعجْ ولا تفزعْ !! أنا أُخبرُك بحالِى . . .
أنا لستُ قردًا كما تراني ، ولكنّى ماردٌ طيّبٌ . وقد عرفتُ
حالَكَ وفقرَكَ ، فجئتُ إليكَ لأخدُمَكَ وأُساعدَك .
وأنتَ الآن أغنى النّاسِ ، وقد تركتَ الكسلَ ، وصرتَ
رجلاً نافعًا صالحاً .

وبقى لك عندى خدمةٌ كبيرةٌ ، أُريدُ أن أقدّمَها إليك .

فقلتُ وأنا فرحانُ :

— وما هذه الخدمةُ :

فقال :

— جمعتُ لك عروسًا جميلةً مثلَ البدْر . فهل تحبُّ
أَن تتزوّجَ ؟

فقلتُ :

— أنت يا سيِّدِى غمرتَنِى بالإحسانِ والفَضْلِ ،

ولا أستطيعُ أن أخالفَ لكَ رأيًا ، أوْ أَعْصِيَ لك نصيحةً .

فقال :

— حسنٌ ! إذاً فقمْ فى صباحِ الغَدِ ، والبسْ خيرَ ما عندكَ من الملابس ، واركبْ بغلتَكَ الشهباء ، وضعْ عليهَا السرجَ الْمُذَهَبَ . واقصِدْ إلى سُوقِ العلاّفينَ ، واسألْ عن دكّانِ الشريفِ . فإذا وصلْتَ إليه ، وجلسْتَ معهُ فأَظهرْ له الغِـنىَ والشرفَ ، واطلبْ منه يَدَ ابْنتِه ،



ولمّا خطبتُ من الشريفِ ابنتَهُ ، طلبَ منّى مهرَها ثلاثةَ آلافِ دينارٍ ، وكان يريدُ أن يرُدَّنِى عن خِطبَتِها بهذه الحيلةِ . ولكنّى قبلتُ ودفعتُ المهرَ فى الحالِ .

فرضِىَ الشريف ، وجَمع كبارَ أهلِ البلدِ ، وأحضرَ القاضِىَ ، وعقَدَ لى عَقْدَ الزّواجِ ، ووعدنى أن يزُفَّها إلىَّ بعدَ عشرة أيامٍ .

ورجعتَ إلى منزِلى مسرورًا فرحانَ ، وأخبرتُ صديقى القردَ بما حدث منّى ومنَ الشريفِ ، فقال لى :

— أحسنتَ كلَّ الإحسانِ . وغداً أُحضِرُ لكَ ضِعفَ هذا المبلغِ الذى دفعتَهُ مهراً .

وقبلَ الزفافِ بيومٍ قالَ لى :

— اسمعْ يا أبا محمد ، بَقِيَ لكَ عندى خدمةٌ كبيرةٌ .
غداً حينما تدخلُ عند زوجتكَ ، سترى فى حجرتِها
خزانةً صغيرةً ، ومفاتيحُها تحتَها . فابذلْ كلَّ حيلةٍ ، وافتحْ
هذه الخزانةَ ، وستجدُ فيها دِيكاً وبجانبِهِ سكينٌ ، فاذبحْهُ .
واحذرْ أَن تراكَ زوجتُكَ .

وبذلكَ تتمُّ لك السعادةُ ، وتعيشُ مع زوجَتِكَ فى
أهْنإ حال .

فصدَّقتُه واللهِ ياأميرَ المؤمنين ، لكثْرةِ أفضالِه
علىَّ ، وما شككتَ فى كلامِهِ الخبيثِ . ولَمَّا دخلتُ
عِند زوجتى ، ورأيتُ الخزانةَ ، وعرَفتُ مكانَ المفاتيحِ
قُلتُ لها :

— إنّى أُريدُ أَن أَتوضَّأَ وأُصلِّيَ ركعتينِ للهِ ، لِيُباركَ
فى زواجِنَا ، ويحفظَنَا من الشَّرِّ .

فقامتْ يا أميرَ المؤمنين بنفسِها لتحضرَ لى الإبريقَ ،

وأسرعْتُ أنا ففتحتُ الخزانةَ ، وذبحتُ الديكَ كما أشارَ عليّ هذا الملعونُ .

وفجأةً سمعت زَوْجَتِي تصيحُ صَيْحةً مُزْعِجةً وتقول :

— خطفَنِي الماردُ ! أدركونى ! الحقونى ! خلّصونى !!

فخرجتُ من الحجرةِ مسرعًا ، ورأيتُ يا أميرَ المؤمنين ما قَطّع عرُوقَ قلبى ، وأسَالَ دُموعِى . . رأَيْتُ ماردًا ضخمًا يحمل الصَّبِيّةَ بين يديهِ ويطيرُ فى السماء .

ونظرْتُ إلى الأرضِ فوجدْتُ جلدَ القردِ العجوزِ المنتوف ، فعرفتُ كل شيءٍ وحزنتُ أشدَّ الحُزْنِ .

وإذا بالشريفِ يسمع الضجّةَ وصياحَ ابنتِه ، فأقبل عليّ هو وغِلْمانُه وأخذ يَسُبُّنى ويشتمُنى ويقول :

— آه يا غادرُ يا خائنُ ! كنتَ متفقًا مع الماردِ على خطفِ ابنتِى .

فحلفتُ له باللهِ أنّى كنتُ أجهـــلُ كلّ شيءٍ ،

ولا أعرِفُ هذا الماردَ . وحكيتُ له حكايَتى كاملةً .

فقال :

— غشَّكَ هذا الماردُ الملعونُ يا أبا محمدٍ ، وقد كان يريد أخْذَ الصبيةِ منذُ سِتِّ سنين . ولكنَّهُ لم يقدرْ .

والآن لا مُقَامَ لك عِندِى ، فاخرجْ من بَيْتى ، واللهُ يرحَمُنى ويُخلِّصُ بنتى من الشَرِّ .



يا أمير المؤمنين من بيته فى ظلامِ الليل ، وأنا فى أشدِّ الحزنِ ؛ بسببِ ما أصابَ هذه الفتاةَ المسكينةَ . وكلّمَا تذكرتُ أنّى كنتُ سببَ مُصيبتِها زادَ ألمِي وحُزنِى ، وكرهتُ الحياةَ ، ولم أُفكّر فى تجارَتى وجواهِرى ، ونسيتُ أُمّى . وصرتُ أَمشِى فى الطريقِ من غيرِ قصدٍ ولا غايةٍ .

وفى الصباحِ وجدتُ نفسِى فى صحراء قاحلةٍ ، ورأيتُ حيّتين كبيرتينِ ، إحداهما سوداء فظيعةٌ ، والأخرى بيضاء وديعةٌ . وهما تتشاجرانِ ، وتعضُّ كلٌّ منهما الأُخرَى . ولكنَّ السوداءَ هى الغالبةَ .

فعطفتُ على الحيَّةِ البيضاء ، وأخذتُ حجرًا كبيرًا ، وضربتُ به الحيَّةَ السوداء فى رأسِها فسقطَتْ على الأرض

بدون حركةٍ ، واختفتِ الحيّةُ البيضاء برهةً صغيرةً ، ثم عادتْ ومعها عشرُ حيّاتٍ بيضٍ ، وهجمْنَ على الحيَّةِ السوداء وصرنَ يعضضنَها ويمزّقنها بأنيابِهنّ ، حتى لم يَبقَ منها شيءٌ .

وغابتِ الحيّاتُ البيضُ عن عَيني ، ولكنّي سمعتُ هاتِفاً يناديني ويقولُ :

— شكراً لك يا أبا محمد الكسلانَ ؛ لأنَّك خلصْتَ أُختَنا الحيَّةَ البيضاء من شرِّ الحيّةِ السوداء .

فتعجّبتُ يا أميرَ المؤمنين وقلتُ في نفسي :

— هذه عجيبةٌ جديدةٌ ، لاتقلُّ عن عجيبةِ القردِ !!

ومن يدرِي . . ؟ قد تنفعني وتخلّصني من بَلْوَتِي التي وقعْتُ فيها . . .

ثم تشجعتُ وقلتُ :

— مَن هذا الذي يخاطِبُني ؟ وكيفَ عرفتَ اسمي ؟!

فقالَ الهاتفُ :

— أنا أخو الحيَّةِ البيضاءِ ، ونحن مَرَدَةٌ طيبونَ مؤمنونَ . ونريدُ أن نردَّ الكَ الجميلَ ، ونساعدَكَ على بلوغِ مَرامِكَ .

فهلْ أَنت فى حاجةٍ إلى مساعدةٍ ؟ !

فقلتُ لهُ :

— نعمْ يا أخِى أنا فى أشدِّ الحاجةِ إلى مساعَدَتِكَ .

وحكيتُ له كلَّ ماجرَى من القردِ معى ومع الصبيَّةِ المسكينة.

فقال :

— لا تخفْ ولا تحزنْ يا أبا محمد ، فأنا أَعْرِفُ هذا الماردَ الكافرَ . وأعرِفُ أنهُ كان يريدُ أن يخطَفَ هذه الصبيَّةَ منذُ مُدَّةٍ طويلةٍ ، ولكنَّ أباها عمل لها سحرًا منعهُ من الوصولِ إليها . ومن أَجْلِ هذا احتالَ عليكَ بهذِه الحيلةِ الخبيثةِ .

وهو الآن مع الصبيةِ فى مدينةِ النحاسِ ، ولكنهُ لم يمدّ يده إليها بأىِّ أذى . فهيا اركبْ جناحِى لنخلِّصَ الصبيّةَ .

فركبتُ جناحَهُ يا أميرَ المؤمنينَ ، وطارَ بى بعد أن أغمضتُ عينى ، وانقطعتُ عنْ ذكرِ الله كما أمرنى ؛ لأن ذكرَ اللهِ يُحْرِقُ الشياطينَ والجنَّ والمرَدَةَ .

وبعدَ لحظةٍ قال لى :

— افتحْ عينَيْكَ .

فلمّا فتحتُ عينى وجدتُ نفسِى فى وسطِ مدينةِ النحاسِ أمامَ الصبيّةِ ، والماردُ نائمٌ بجوارِها . وهى حزينةٌ تبكى وتندبُ حظّها .

وإذا بالهاتفِ الذى كان يحملُنى قد تحوّل إلى ماردٍ ضخمٍ ، وهجَم على الماردِ النائمِ وقيّده بالقيودِ .

ثمَّ صفّق بيديه ، فحضَر إخوتُه العشرةُ ، وفيهم الماردةُ الوديعةُ التى كانتْ فى صورةِ حيّةٍ بيضاء .



وجدت نفسى . . أمام الصبية . . .

فقال لهم الماردُ الهاتفُ :

— هيَّا يا إخوتِي نساعد أبا محمد الكسلانَ ، ونردُّ إليه الجميلَ . . .

وأحضرُوا قمقمًا من قمَاقِمِ نبىِّ اللهِ سليمانَ ، ووضعوا فيه الماردَ الغادرَ ، وأقفلُوا عليه بخاتمِ سليمانَ ، حتى لا يخرجَ منه .

وحَملُونى وحملُوا الصبيَّةَ إلى مدينةِ البصرةِ ، وعادُوا بنا إلى منزلِ الشريفِ .

فلما رأى الشريفُ ابنتهُ فرحَ غايةَ الفرحِ ، وأقامَ الزيناتِ والأفراحَ ، والليالىَ الملاحَ

وأخذتُ زوجتِى ، وانتقلتُ إلى بيتِى . وإذا بهؤلاء المرَدَةِ الطيِّبينَ ، قد حمَلُوا إلى بَيْتى كلَّ ما فى مدينةِ النحاسِ من كنوز وجواهرَ وأموالٍ . وحَملُوا القمْقمِ وقالوا لى :

— هذه هديَّتُنَا إليكَ . وهى أموالُ الماردِ القردِ

وكنوزُه . وهو سجينٌ عندكَ فى هذا القمقمِ . فاحذرْ أن يخرجَ من سجنه ويُهلِكَكَ ، ويُهلكَ عروسَكَ . . .

واللؤلؤةُ يا أمير المؤمنين والهدايا التى تشرفتُ بتقديمَها إليكَ ، إنما هى من كنوزِ هذا الماردِ الملعون .

وليسَ عندَ أحدٍ منَ الناسِ مثيلٌ لها . . .

***

فلمَّا سمعَ الرشيدُ هذه القصّةَ قال :

— صدقتَ يا أبا محمدٍ الكسلانَ . . . إنها قصةٌ عجيبةٌ ! ! ولو كتبت بالإبَرِ على آماقِ البَصَر ، لكانَتْ عِبرَةً لمن اعتبرَ .

قصص الرشيد

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة